الكتاب : السلطان محمد الثاني العثماني السابع في سلسلة آل عثمان

السلطان محمد الثاني العثماني السابع في سلسلة آل عثمان، يلقب بالفاتح وأبي الخيرات. ولد عام 833
، وتولى السلطنة عام 855، فكان عمره يومذاك اثنين وعشرين سنة، وتوفي يوم 4 ربيع الأول عام 886
عن عمر ينوف على خمس وخمسين سنة بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة .
</ br />
ولقد امتاز السلطان محمد الفاتح بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما أنه فاق أقرانه منذ حداثته في
كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد
لدراسة كتب التاريخ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته في الإدارة وميادين القتال حتى أنه اشتهر
أخيراً في التاريخ بلقب محمد الفاتح، لفتحه القسطنطينية.

وكذلك ركز على
تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم وأمدهم بأحدث
الأسلحة المتوفرة في ذلك العصر.

و تطلع إلى القسطنطينية لفتحها ونشر
الإسلام فيها، و ساعدته عوامل عدة في تحقيق أهدافه، منها الضعف الذي وصلت إليه الإمبراطورية
البيزنطية بسبب المنازعات مع الدول الأوروبية الأخرى، وعمل بجد من أجل فتح القسطنطينية عاصمة
الإمبراطورية البيزنطية، والمعقل الاستراتيجي الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الإسلامي لفترة طويلة
من الزمن، والتي طالما اعتزت بها الإمبراطورية البيزنطية بصورة خاصة والمسيحية بصورة
عامة.

وكان أول عمل قام به أن أرجع زوجة أبيه الأميرة الصربية (مارا)
إلى أبيها ، ورأى قسطنطين أن محمد الثاني عازم على دخول مدينته فعرض دفع الجزية التي يريد فرفض
السلطان ، ورأى أن يتزوج بأرملة السلطان مراد الثاني أم السلطان محمد وكانت لا تزال على نصرانيتها
فرفضت واعتكفت في بعض الأديرة ، ثم بدأ الإمبراطور يستنجد الدول النصرانية، وتم حصار القسطنطينية
وفتحها بعد عامين فقط من توليه السلطة .

وبدأ البابا يدعو إلى حرب صليبية

فشجع اسكندر بك أمير ألبانيا على نقض عهده مع السلطان، ودعا ملوك أوربا وأمرائها لمساندته، غير أن
البابا قد توفي ولم تقم الحرب الصليبية، لكن اسكندر بك نقض العهد، وحارب العثمانيين، وكانت الحرب
سجالاً بين الطرفين. وتوفي اسكندر بك عام 870.

وفي أثناء حصار
القسطنطينية عرف ضريح أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري رضي الله عنه، فبنى عنده مسجداً، وأصبح
تنصيب السلاطين يتم بهذا المسجد.

أولاً: الإعداد للفتح:

لقد اعتنى السلطان محمد الفاتح بإقامة قلعة (روملي حصار) في
الجانب الأوروبي على مضيق البسفور في أضيق نقطة منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان
بايزيد في البر الآسيوي، وقد حاول الإمبراطور البيزنطي ثني السلطان الفاتح عن بناء القلعة مقابل
التزامات مالية تعهد بها إلا أن الفاتح أصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع ، حتى
اكتملت قلعة عالية ومحصنة ، وصل ارتفاعها إلى 82 متراً، وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما
سوى 660م تتحكمان في عبور السفن من شرقي البسفور إلى غربيه وتستطيع نيران مدافعهما منع أي
سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها مثل مملكة (طرابزون) وغيرها من
الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة.

أ- اهتمام السلطان بجمع
الأسلحة اللازمة:
اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية،
ومن أهمها المدافع التي أخذت اهتماماً خاصاً منه حيث أحضر مهندساً مجرياً يدعي (أوربان) كان
بارعاً في صناعة المدافع فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية، وقد تمكن
هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور،
والذي ذكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف

السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها.

ب- الاهتمام
بالأسطول:
ويضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثماني
حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية،
تلك المدينة البحرية التي لا يكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة ، وقد ذكر أن السفن
التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمائة سفينة.

ج- عقد
معاهدات:
كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه
المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة (غلطة) المجاورة للقسطنطينية من الشرق ، كما
عقد معاهدات مع (المجد) و (البندقية) وهما من الأمارات الأوروبية المجاورة ، ولكن هذه
المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية ، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها
للمشاركة في الدفاع عن القسطنطينية مشاركة لبني عقيدتهم من النصارى متناسين عهودهم ومواثيقهم مع
المسلمين.

في هذه الأثناء التي كان السلطان يعد العدة فيها للفتح استمات
الإمبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه ، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه ، بمحاولة رشوة
بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره ولكن السلطان كان عازماً على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن
هدفه ، ولما رأى الإمبراطور البيزنطي شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من
مختلف الدول والمدن الأوربية وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي ، في الوقت الذي كانت فيه
كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عداء شديد ، وقد
اضطر الإمبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرب إليه ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيسة

الأرثوذكسية الشرقية لتصبح خاضعة له ، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك ، وقد قام
البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية ، خطب في كنيسة آيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن
توحيد الكنيستين ، مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة ، وجعلهم

يقومون بحركة مضادة لهذا العمل
الإمبراطوري الكاثوليكي المشترك ، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس :
(إنني أفضل أن أشاهد في
ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية).

ثانياً:
الهجوم:
كانت القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية في ثلاث جبهات، مضيق البسفور، وبحر
مرمرة، والقرن الذهبي الذي كان محمياً بسلسلة ضخمة جداً تتحكم في دخول السفن إليه، وبالإضافة إلى
ذلك فإن خطين من الأسوار كانت تحيط بها من الناحية البرية من شاطئ بحر مرمرة إلى القرن الذهبي،
يتخللها نهر ليكوس، وكان بين السورين فضاء يبلغ عرضه 60 قدماً ويرتفع السور الداخلي منها 40 قدماً
وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلى 60 قدماً، وأما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة خمس وعشرين قدماً
وعليه أبراج موزعة مليئة بالجند، وبالتالي فإن المدينة من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم
تحصيناً، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضافة إلى التحصينات الطبيعية، وبالتالي فإنه يصعب
اختراقها، ولذلك فقد استعصت على عشرات المحاولات العسكرية لاقتحامها ومنها إحدى عشرة محاولة
إسلامية سابقة.

كان السلطان الفاتح يكمل استعدادات القسطنطينية ويعرف
أخبارها ويجهز الخرائط اللازمة لحصارها ، كما كان يقوم بنفسه بزيارات استطلاعية يشاهد فيها
استحكامات القسطنطينية وأسوارها ، وقد عمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكي
تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية ، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب

القسطنطينية ، في مدة شهرين حيث تمت حمايتها بقسم من الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها
الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في يوم الخميس 26 ربيع الأول 857هـ الموافق 6 أبريل 1453م ،
فجمع الجند وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندي ، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب
النصر أو الشهادة ، وذكرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء ، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي
تحث على ذلك ، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها

وأميره ، وما في فتحها من عز الإسلام والمسلمين ، وقد بادر الجيش
بالتهليل والتكبير والدعاء.

وكان العلماء مبثوثين في صفوف الجيش مقاتلين ومجاهدين مما
أثر في رفع معنوياتهم
حتى كان كل جندي ينتظر القتال بفارغ الصبر ليؤدي ما عليه من واجب.

وفي
اليوم التالي قام السلطان بتوزيع جيشه البري أمام الأسوار الخارجية
للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسية
تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات، كما أقام الفاتح
جيوشاً احتياطية خلف الجيوش
الرئيسية، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع
السلطاني العملاق الذي أقيم أمام باب
طب قابي، كما وضع فرقاً للمراقبة في مختلف المواقع المرتفعة والقريبة
من المدينة، وفي نفس الوقت
انتشرت السفن العثمانية في المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها لم تستطع
الوصول إلى القرن الذهبي بسبب
وجود السلسلة الضخمة التي منعت أي سفينة من دخوله بل وتدمر كل
سفينة تحاول الدنو والاقتراب،
واستطاع الأسطول العثماني أن يستولي على جزر الأمراء في بحر
مرمرة.

وحاول البيزنطيون أن يبذلوا قصارى جهدهم للدفاع عن القسطنطينية ،
ووزعوا الجنود على الأسوار،
وأحكموا التحصينات، وأحكم الجيش العثماني قبضته على المدينة، ولم يخلُ
الأمر من وقوع قتال بين

(1/5)

العثمانيين المهاجمين والبيزنطيين المدافعيين منذ الأيام الأولى للحصار،
وفتحت أبواب الشهادة وفاز عدد
كبير من العثمانيين بها خصوصاً من الأفراد الموكلين بالاقتراب من
الأبواب.

وكانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من مواقع مختلفة نحو المدينة،
وكان لقذائفها ولصوتها الرهيب
دور كبير في إيقاع الرعب في قلوب البيزنطيين، وقد تمكنت من تحطيم
بعض الأسوار حول المدينة، ولكن
المدافعين كانوا سرعان ما يعيدون بناء الأسوار وترميمها.

ولم تنقطع
المساعدات المسيحية من أووربا، ووصلت إمدادات من (جنوة) مكونة من
خمس سفن وكان يقودها
القائد الجنوي (جستنيان) يرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من دول أوربية
متعددة، واستطاعت سفنهم أن
تصل إلى العاصمة البيزنطية العتيقة بعد مواجهة بحرية مع السفن العثمانية

المحاصرة للمدينة، وكان
لوصول هذه القوات أثر كبير في رفع معنويات البيزنطيين، وعين قائدها (جستنيان) قائداً عاماً
للقوات المدافعة عن المدينة.

وقد حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي
السلسلة الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه ، وأطلقوا سهامهم
على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية وارتفعت الروح المعنوية
للمدافعين عن المدينة.

ولم يكل القس ورجال الدين النصارى، فكانوا يطوفون
بشوارع المدينة، وأماكن التحصين ويحرضون المسيحيين على الثبات والصبر، ويشجعون الناس على
الذهاب إلى الكنائس ودعاء المسيح والسيدة والعذراء وأن يخلصوا المدينة، وأخذ الإمبراطور قسطنطين
يتردد بنفسه على كنيسة أيا صوفيا لهذا الهدف.

ثالثاً: مفاوضات بين محمد
الفاتح وقسطنطين:
حاول الإمبراطور البيزنطي أن يخلص مدينته وشعبه بكل ما يستطيع من
حيلة، فقدم عروضاً مختلفة للسلطان ليغريه بالانسحاب مقابل الأموال أو الطاعة، أو غير ذلك من

(1/6)

العروض التي قدمها، ولكن الفاتح رحمه الله يرد بالمقابل طالباً تسليم المدنية، وأنه في هذه الحالة لن
يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى، وكان مضمون الرسالة: (فليسلم لي إمبراطوركم مدينة
القسطنطينية ، وأقسم بأن جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه، ومن شاء بقي في المدينة
وعاش فيها في أمن وسلام، ومن شاء رحل عنها حيث أراد في أمن وسلام أيضاً).

كان الحصار لا يزال ناقصاً ببقاء مضيق القرن الذهبي في أيدي البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإن
الهجوم العثماني كان مستمراً دون هوادة حيث أظهر جنود الانكشارية شجاعة فائقة، وبسالة نادرة، فكانوا
يقدمون على الموت دون خوف في أعقاب كل قصف مدفعي، وفي يوم 18 أبريل تمكنت المدافع العثمانية
من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند (وادي ليكوس) في الجزء الغربي من الأسوار، فاندفع إليها
الجنود العثمانيون بكل بسالة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة، كما حالوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسلالم

التي ألقوها عليها، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة (جستنيان) استماتوا في الدفاع عن الثغرة
والأسوار، واشتد القتال بين الطرفين، وكانت الثغرة ضيقة وكثرت السهام والنبال والمقذوفات على الجنود
المسلمين ، ومع ضيق المكان وشدة مقاومة الأعداء وحلول الظلام أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين
بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم متحينين فرصة أخرى للهجوم.

وفي اليوم نفسه حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبي بتحطيم السلسلة الحاجزة عنه،
ولكن السفن البيزنطية والأوروبية المشتركة، إضافة إلى الفرق الدفاعية المتمركزة خلف السلسلة الضخمة
من المدافعين عن مدخل الخليج، استطاعوا جميعاً من صد السفن الإسلامية وتدمير بعضها، فاضطرت
بقية السفن إلى العودة بعد أن فشلت في تحقيق مهمتها.

رابعاً: عزل قائد

(1/7)

الأسطول العثماني وشجاعة محمد الفاتح:
بعد هذه المعركة بيومين وقعت معركة أخرى بين
البحرية العثمانية وبعض السفن الأوروبية التي حاولت الوصول إلى الخليج، حيث بذلت السفن الإسلامية
جهوداً كبيرة لمنعها، أشرف الفاتح بنفسه على المعركة من على الساحل وكان قد أرسل إلى قائد الأسطول
وقال له: (إما أن تستولي على هذه السفن وإما أن تغرقها، إذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حياً)
لكن السفن الأوروبية نجحت في الوصول إلى هدفها ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها، رغم الجهود
العظيمة المبذولة لذلك، وبالتالي غضب السلطان محمد الفاتح غضباً شديداً فعزل قائد الأسطول بعد ما رجع
إلى مقر قيادته واستدعاه وعنف محمد الفاتح قائد الأسطول (بالطه أوغلي) وعنفه واتهمه بالجبن،
وتأثر(بالطة أو غلي) لهذا قال: (إني أستقبل الموت بجنان ثابت، ولكن يؤلمني أن أموت وأنا
متهم بمثل هذه التهمة. لقد قاتلت أنا ورجالي بكل ما كان في وسعنا من حيلة وقوة) ورفع طرف
عمامته عن عينه المصابة ، أدرك محمد الفاتح عند ذلك أن الرجل قد أعذر، فتركه ينصرف واكتفى بعزله
من منصبه، وجعل مكانه حمزة باشا.

خامساً: عبقرية حربية فذة:
لاحت للسلطان فكرة بارعة وهي نقل السفن من مرساها في

(بشكطاش) إلى القرن الذهبي، وذلك
بجرها على الطرق البري الواقع بين الميناءين مبتعداً عن (حي غلطة) خوفاً على سفنه من
الجنويين ، وقد كانت المسافة بين الميناء نحو ثلاثة أميال ، ولم تكن أرضاً مبسوطة سهلة ولكنها كانت
وهاداً وتلالاً غير ممهدة ، فجمع أركان حربه وعرض عليهم فكرته، فتلقى منهم كل تشجيع، وأعربوا عن
إعجابهم بها.

بدأ تنفيذ الخطة، وأمر السلطان محمد الثاني فمهدت الأرض
وسويت في ساعات قليلة وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد
بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، وكان أصعب جزء من المشروع هو نقل السفن على انحدار

التلال المرتفعة ، إلا أنه بصفة عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم خفيفة الوزن.

وجرت السفن من البسفور إلى البر حيث سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت
مسافة ثلاثة أميال ، حتى وصلت إلى نقطة آمنة فأنزلت في القرن الذهبي ، وتمكن العثمانيون في تلك الليلة
من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو ، بطريقة لم يسبق
إليها السلطان الفاتح قبل ذلك ، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيداً عن أنظار
العدو ومراقبته.

وقد تم كل ذلك في ليلة واحدة ، واستيقظ أهل المدينة البائسة
صباح يوم 22 أبريل على تكبيرات العثمانيين المدوية ، وهتافاتهم المتصاعدة ، وأناشيدهم الإيمانية العالية ،
في القرن الذهبي ، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي ، ولم يعد هناك حاجز
مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين ، ولقد عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن
عجبهم من هذا العمل فقال : (ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق ، محمد الفاتح يحول
الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج ، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الإسكندر
الأكبر). ظهر اليأس في أهل القسطنطينية وكثرت الإشاعات والتنبؤات بينهم، وانتشرت شائعة تقول:
ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفن تمخر اليابسة.

وكان لوجود السفن

الإسلامية في القرن الذهبي دور كبير في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة الذين
اضطروا لسحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرى لكي يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة
على القرن الذهبي إذ أنها كانت أضعف الأسوار، ولكنها في السابق تحميها المياه، مما أوقع الخلل في
الدفاع عن الأسوار الأخرى.
وقد حاول الإمبراطور البيزنطي تنظيم أكثر من عملية لتدمير

(1/9)

الأسطول العثماني في القرن الذهبي إلا أن محاولته المستميتة كان العثمانيون لها بالمرصاد حيث أفشلوا
كل الخطط والمحاولات.

واستمر العثمانيون في دك نقاط دفاع المدينة
وأسوارها بالمدافع ، وحاولوا تسلق أسوارها ، وفي الوقت نفسه انشغل المدافعون عن المدينة في بناء
وترميم ما يتهدم من أسوار مدينتهم ورد المحاولات المكثفة لتسلق الأسوار مع استمرار الحصار عليهم
مما زاد في مشقتهم وإرهاقهم وشغل ليلهم مع نهارهم وأصابهم اليأس.

كما
وضع العثمانيون مدافع خاصة على الهضاب المجاورة للبسفور والقرن الذهبي ، مهمتها تدمير السفن
البيزنطية والمتعاونة معها في القرن الذهبي والبسفور والمياه المجاورة مما عرقل حركة سفن الأعداء
وأصابها بالشلل تماماً.

سادساً: الحرب النفسية العثمانية:
وظل الهجوم العثماني البري في موجات خاطفة وسريعة هجمة تلوى الأخرى، وكان السلطان محمد الفاتح
يوالي الهجمات وإطلاق القذائف في البر والبحر دون انقطاع ليلاً ونهاراً من أجل إنهاك قوى المحاصرين ،
وعدم تمكينهم من أن ينالوا أي قسط من راحة وهدوء بال ، وهكذا أصبحت عزائمهم ضعيفة ونفوسهم
مرهقة كليلة ، وأعصابهم متوترة مجهدة تثور لأي سبب.

لجأ العثمانيون إلى
طريقة عجيبة في محاولة دخول المدينة حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من مناطق مختلفة إلى
داخل المدينة وسمع سكانها ضربات شديدة تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتدريج، فأسرع
الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ومستشاروه إلى ناحية الصوت وأدركوا أن العثمانيين يقومون بحفر أنفاق
تحت الأرض، للوصول إلى داخل المدينة، فقرر المدافعون الإعداد لمواجهتها

بحفر أنفاق مماثلة مقابل
أنفاق المهاجمين دون أن يعلموا، حتى إذا وصل العثمانيون إلى الأنفاق التي
أعدت لهم ظنوا أنهم وصلوا

(1/10)

إلى سراديب خاصة وسرية تؤدي إلى داخل المدينة ففرحوا بهذا، ولكن
الفرحة لم تطل إذا فاجأهم الروم،
فصبوا عليهم ألسنة النيران والنفط المحترق والمواد الملتهبة، فاختنق كثير
منهم واحترق قسم آخر وعاد
الناجون منهم أدراجهم من حيت أتوا.

لكن هذا الفشل لم
يفت في عضد
العثمانيين، فعاودوا حفر أنفاق أخرى، وفي مواضع مختلفة، من المنطقة
الممتدة بين (أكرى فبو)
وشاطئ القرن الذهبي ، وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار، وقد
أصاب أهل القسطنطينية من جراء
ذلك خوف عظيم وفزع لا يوصف حتى صاروا يتوهمون أن أصوات أقدامهم
وهو يمشون إن هي أصوات
خفية لحفر يقوم به العثمانيون ويملئون المدينة ، فكانوا يتلفتون يمنة ويسرة
، ويشيرون هنا وهناك في فزع
ويقولون : (هذا تركي ، ... هذا تركي) ويجرون هرباً من أشباح يحسبون أنها
تطاردهم.

سابعاً: مفاجأة عسكرية عثمانية:
لجأ العثمانيون إلى
أسلوب جديد في
محاولة الاقتحام وذلك بأن صنعوا قلعة خشبية ضخمة شامخة متحركة تتكون
من ثلاثة أدوار، وبارتفاع
أعلى من الأسوار، وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها
النيران، وأعدت تلك القلعة
بالرجال في كل دور من أدوارها، وكان الذين في الدور العلوي من الرماة
يقذفون بالنبال كل من يطل
برأسه من فوق الأسوار، وقد وقع الرعب في قلوب المدافعين عن المدينة
حينما زحف العثمانيون بهذه
القلعة واقتربوا بها من الأسوار عن باب(رومانوس)، فاتجه الإمبراطور
بنفسه ومعه قواده ليتابع صد
تلك القلعة ودفعها عن الأسوار، وقد تمكن العثمانيون من لصقها بالأسوار
ودار بين من فيها وبين النصارى
عند الأسوار قتل شديد، واستطاع بعض المسلمين ممن في القلعة تسلق
الأسوار ونجحوا في ذلك، وقد ظن
قسطنطين أن الهزيمة حلت به، إلا أن المدافعين كثفوا من قذف القلعة
بالنيران حتى أثرت فيها وتمكنت

(1/11)

منها النيران فاحترقت، ووقعت على الأبراج البيزنطية المجاورة لها فقتلت من فيها من المدافعين، وامتلأ
الخندق المجاور لها بالحجارة والتراب.

ثامناً: المفاوضات الأخيرة بين
محمد الفاتح وقسطنطين:
أيقن محمد الفاتح أن المدينة على وشك السقوط، ومع ذلك حاول
أن يكون دخولها بسلام، فكتب إلى الإمبراطور رسالة دعاه فيه إلى تسليم المدينة دون إراقة دماء ، وعرض
عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاؤون بأمان ، وأن تحقن
دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى ويكونوا بالخيار في البقاء في المدينة أو الرحيل عنها ، ولما
وصلت الرسالة إلى الإمبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر ، فمال بعضهم إلى التسليم وأصر
آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت ، فمال الإمبراطور إلى رأي القائلين بالقتال حتى آخر
لحظة ، فرد الإمبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها : (إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم
وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس في حياته فإما أن
يحفظ عرشه أو يدفن تحت أسوارها) ، فلما وصلت الرسالة إلى الفاتح قال : (حسناً عن قريب
سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر).

وعمد السلطان بعد
اليأس من تسليم المدينة صلحاً إلى تكثيف الهجوم وخصوصاً القصف المدفعي على المدينة، حتى أن المدافع
السلطاني الضخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشتغلين له وعلى رأسهم المهندس المجري(
أوربان)الذي تولى الإشراف على تصميم المدفع، ومع ذلك فقد وجه السلطان بإجراء عمليات التبريد
للمدافع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون في ذلك، وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرة أخرى، بل تمكنت
من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة إلى ضربها للأسوار والقلاع.

تاسعاً: محمد الفاتح يوجه تعليماته ويتابع جنوده بنفسه:
في يوم الأحد 18 جمادى
الأول 27 من مايو وجه السلطان محمد الفاتح الجنود إلى الخشوع وتطهير

النفوس والتقرب إلى الله تعالى
بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بين يديه ، لعل الله أن ييسر لهم
الفتح ، وانتشر هذا الأمر بين
عامة المسلمين ، كما قام الفاتح بنفسه ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة
ومعرفة آخر أحوالها ، وما وصلت إليه
وأوضاع المدافعين عنها في النقاط المختلفة ، وحدد مواقع معينة يتم فيها
تركيز القصف العثماني ، و تفقد
فيها أحوالهم وحثهم على الجد والتضحية في قتال الأعداء.

وفي اليوم التالي 28
مايو كانت الاستعدادات العثمانية على أشدها والمدافع ترمي البيزنط بنيرانها
، والسلطان يدور بنفسه على
المواقع العسكرية المختلفة متفقداً موجهاً ومذكراً بالإخلاص والدعاء
والتضحية والجهاد.

وبعد أن عاد الفاتح إلى خيمته ودعا إليه كبار رجال جيشه أصدر
إليهم التعليمات
الأخيرة، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية: "إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق
فينا حديث من أحاديث رسول
الله ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من
التمجيد والتقدير فأبلغوا أبناءنا
العساكر فرداً فرداً، أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً
وشرفاً، ويجب على كل جندي أن
يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي
هذه التعاليم، وليتجنبوا الكنائس
والمعابد ولا يمسوها بأذى ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا
يقاتلون.

وتوجه قسطنطين نحو صورة (يزعمون أنها صورة المسيح) معلقة في
أحد الغرف فركع تحتها
وهمهم بعض الدعوات ثم نهض ولبس المغفر على رأسه وخرج من القصر
نحو منتصف الليل مع زميله
ورفيقه وأمينه المؤرخ(فرانتزتس) ثم قاما برحلة تفقدية لقوات النصارى
المدافعة ولا حظوا حركة

الجيش العثماني النشطة المتوثبة للهجوم البري والبحري.

عاشراً: فتح من
الله ونصر قريب:
عند الساعة الواحدة صباحا من يوم الثلاثاء 20
جمادى الأولى سنة
857هـ الموافق 29 مايو 1435م بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن
أصدرت الأوامر للمجاهدين الذين
علت أصواتهم بالتكبير وانطلقوا نحو الأسوار ، وخاف البيزنطيون خوفاً
عظيماً ، وشرعوا في دق نواقيس

الكنائس والتجأ إليها كثير من النصارى ، وكان الهجوم النهائي متزامنا برياً وبحرياً في وقت واحد حسب
خطة دقيقة أعدت بإحكام ، وكان المجاهدون يرغبون في الشهادة ، ولذلك تقدموا بكل شجاعة وتضحية
وإقدام نحو الأعداء ونال الكثير من المجاهدين الشهادة ، وكان الهجوم موزعا على كثير من المناطق ،
ولكنه مركز بالدرجة الأولى في منطقة وادي ليكوس ، بقيادة السلطان محمد الفاتح نفسه ، وكانت الكتائب
الأولى من العثمانيين تمطر الأسوار والنصارى بوابل من القذائف والسهام محاولين شل حركة المدافعين ،
ومع استبسال البيزنطيين وشجاعة العثمانيين كان الضحايا من الطرفين يسقطون بأعداد كبيرة .br>
</ br></ وبعد أن انهكت الفرقة الأولى الهجومية كان السلطان قد أعد فرقة أخرى فسحب
الأولى ووجه الفرقة الثانية ، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء ، وتمكنت الفرقة الجديدة ، من الوصول
إلى الأسوار وأقاموا عليها مئات السلالم في محاولة جادة للاقتحام ، ولكن النصارى استطاعوا قلب السلالم
واستمرت تلك المحاولات المستميتة من المهاجمين ، والبيزنطيون يبذلون قصارى جهودهم للتصدي
لمحاولات التسلق ، وبعد ساعتين من تلك المحاولات أصدر الفاتح أوامره للجنود لأخذ قسط من الراحة ،
بعد أن أرهقوا المدافعين في تلك المنطقة ، وفي الوقت نفسه أصدر أمراً إلى قسم ثالث من المهاجمين
بالهجوم على الأسوار من نفس المنطقة ، وفوجئ المدافعون بتلك الموجة الجديدة بعد أن ظنوا أن الأمر قد

هدأ وكانوا قد أرهقوا ، في الوقت الذي كان المهاجمون دماء جديدة معدة ومستريحة وفي رغبة شديدة لأخذ
نصيبهم من القتال .

</ كما كان القتال يجري على قدم وساق في المنطقة البحرية
مما شتت قوات المدافعين وأشغلهم في أكثر من جبهة في وقت واحد ، ومع بزوغ نور الصباح أصبح
المهاجمون يستطيعون أن يحددوا مواقع العدو بدقة أكثر ، وشرعوا في مضاعفة جهودهم في الهجوم ،
وكان المسلمون في حماسة شديدة وحريصين على إنجاح الهجوم ، ومع ذلك أصدر السلطان محمد الأوامر
إلى جنوده بالانسحاب لكي يتيحوا الفرصة للمدافع لتقوم بعملها مرة أخرى حيث أمطرت الأسوار
والمدافعين عنها بوابل من القذائف ، واتبعتهم بعد سهرهم طوال الليل ،

وبعد أن هدأت المدفعية جاء قسم
جديد من شجعان الإنكشارية يقودهم السلطان نفسه تغطيهم نبال وسهام المهاجمين التي لا تنفك عن محاولة
منع المدافعين عنها ، وأظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة وبسالة نادرة في الهجوم واستطاع ثلاثون منهم
تسلق السور أمام دهشة الأعداء ، ورغم استشهاد مجموعة منهم بمن فيهم قائدهم فقد تمكنوا من تمهيد
الطريق لدخول المدينة عند (طوب قابي) ورفعوا الأعلام العثمانية مما زاد في حماس بقية الجيش
للاقتحام كما فتوا في عضد الأعضاء .

وفي نفس الوقت أصيب قائد
المدافعين(جستنيان) بجراح بليغة دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة مما أثر في بقية المدافعين
، وقد تولى الإمبراطور قسطنطين قيادة المدافعين بنفسه محل جستنيان الذي ركب أحد السفن فاراً من
أرض المعركة ، وقد بذل الإمبراطور جهودا كبيرة في تثبيت المدافعين الذين دب اليأس في قلوبهم من
جدوى المقاومة ، في الوقت الذي كان فيه الهجوم بقيادة السلطان شخصياً على أشده، محاولاً استغلال
ضعف الروح المعنوية لدى المدافعين.

وقد واصل العثمانيون هجومهم في

(1/15)

ناحية أخرى من المدينة حتى تمكنوا من اقتحام الأسوار والاستيلاء على بعض الأبراج والقضاء على
المدافعين في باب أدرنة ورفعت الأعلام العثمانية عليها ، وتدفق الجنود العثمانيون نحو المدينة من تلك
المنطقة ، ولما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة ، أيقن بعدم جدوى
الدفاع وخلع ملابسه حتى لا يعرف ، ونزل عن حصانه وقاتل حتى قتل في ساحة المعركة.

وتمكنت الجيوش العثمانية من دخول المدينة من مناطق مختلفة وفر المدافعون بعد انتهاء
قيادتهم ، وهكذا تمكن المسلمون من الاستيلاء على المدينة ، وكان الفاتح رحمه الله مع جنده في تلك
اللحظات يشاركهم فرحة النصر من فوق صهوة جواده ، وكان قواده يهنئونه وهو يقول : (الحمد لله
ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر).

كانت هناك بعض الجيوب الدفاعية داخل المدينة التي تسببت في استشهاد عدد من المجاهدين ، وقد

هرب أغلب أهل المدينة إلى الكنائس ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء 20
جمادى الأولى 857هـ الموافق
29 من مايو 1453م ، إلا والسلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده
وقواده وهو يرددون ما شاء الله
، فالتفت إليهم وقال : لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الذي أخبر عنهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل ، وأمرهم بالرفق بالناس والإحسان إليهم ،
ثم ترجل عن فرسه وسجد لله
على الأرض شكراً وحمداً وتواضعاً لله تعالى.
</ br />حادي عشر :
معاملة محمد
الفاتح للنصارى المغلوبين :
توجه محمد الفاتح إلى كنيسة(آيا صوفية
) وقد اجتمع فيها
خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم
صلواتهم وأدعيتهم ، وعندما اقترب
من أبوابها خاف النصارى داخلها خوفاً عظيماً ، وقام أحد الرهبان بفتح
الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة

الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان ، فأطمأن الناس وكان بعض
الرهبان مختبئين في سراديب
الكنيسة ، فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم ، وقد أمر
الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة
إلى مسجد وأن يعد لهذا الأمر حتى تقام بها أول جمعة قادمة ، وقد أخذ
العمال يعدون لهذا الأمر ، فأزالوا
الصلبان والتماثيل وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعملوا منبراً للخطيب ،
وقد يجوز تحويل الكنسية إلى
المسجد لأن البلد فتحت عنوة والعنوة لها حكمها في الشريعة الإسلامية.<
</ br /><br
وقدأعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم
الدينين الذين لهم حق الحكم في
القضايا المدنية ، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى
ولكنه في الوقت نفسه فرض
الجزية على الجميع.
</ br />لقد حاول المؤرخ الإنجليزي (ادوارد
شيبرد كريسي
) في كتابة (تاريخ العثمانيين الأتراك) أن يشوه صوره الفتح العثمانية
للقسطنطينية، ووصف
السلطان محمد الفاتح بصفات قبيحة حقداً منه وبغضاً للفتح الإسلامي
المجيد، وسارت الموسوعة الأمريكية
المطبوعة في عام 1980م في حمأة الحقد الصليبي ضد الإسلام، فزعمت
أن السلطان محمد قام باسترقاق
غالبية نصارى القسطنطينية، وساقهم إلى أسواق الرقيق في مدينة دارنة

حيث تم بيعهم هناك.
</br></br>إن الحقيقة التاريخية الناصعة تقول : إن السلطان محمد الفاتح عامل أهل
القسطنطينية معاملة رحيمة وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى و الرفق بهم ، وافتدى عدداً كبيراً من
الأسرى من ماله الخاص وخاصة أمراء اليونان ، ورجال الدين ، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم ،
وطمأنهم إلى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم ، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فانتخبوا
(أجناديوس) بطريكا ، وتوجه هذا بعد انتخابه في موكب حافل من الأساقفة إلى مقر السلطان ،

فاستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة وأكرمه أيما تكريم ، وتناول معه الطعام وتحدث معه في
موضوعات شتى ، دينية وسياسية واجتماعية ، وخرج البطريريك من لقاء السلطان ، وقد تغيرت فكرته
تماماً على السلاطين العثمانيين وعن الأتراك ، بل والمسلمين عامة ، وشعر أنه أمام سلطان مثقف صاحب
رسالة وعقيدة دينية راسخة وإنسانية رفيعة ، ورجولة مكتملة ، ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثراً ودهشة من
بطريقهم ، فقد كانوا يتصورون أن القتل العام لا بد لاحقهم ، فلم تمض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون
حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام.

هل حقاً فتحت ؟
يرى
بعض الكتاب أن القسطنطينية لم تفتح بعد ، وأن ما صنعه محمد الفاتح هو مقدمة له ليس أكثر وأن الذي
سيفتح القسطنطينية هو المهدي لظاهر الأحاديث التالية : حيث أنه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ ـ جعل
فتح القسطنطينية بلا قتال ؛ ويلحق فتحها ظهور الدجال وبينهما سبعة أشهر ؛ ويسبق فتحها خراب يثرب ثم
ظهور الملحمة الكبرى .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : (لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش
من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا
نقاتلهم ، فيقول المسلمون : لا والله كيف نخلي بينكم وبين إخواننا ، فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله
عليه أبداً ، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله ، ويفتح الثلث فلا يفتنون أبداً ، فيفتحون القسطنطينية فبينما

هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان إن المسيح الدجال قد خلفكم في
أهاليكم ..) رواه مسلم .

وأخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " سَمِعْتُمْ بِمَدِينَةٍ جَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَرِّ وَجَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَحْرِ قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ
، قَالَ : لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْزُوَهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْحَقَ فَإِذَا جَاءُوهَا نَزَلُوا فَلَمْ يُقَاتِلُوا بِسِلاحٍ وَلَمْ
يَرْمُوا بِسَهْمٍ قَالُوا : لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ فَيَسْقُطُ أَحَدُ جَانِبَيْهَا الَّذِي فِي الْبَحْرِ ثُمَّ يَقُولُوا الثَّانِيَةَ : لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الآخَرُ ثُمَّ يَقُولُوا الثَّالِثَةَ : لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ فَيُفَرَّجُ لَهُمْ فَيَدْخُلُوهَا
فَيَغْنَمُوا ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْمَغَانِمَ إِذْ جَاءَهُمْ الصَّرِيخُ فَقَالَ:إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَرَجَ فَيَتْرُكُونَ كُلَّ شَيْءٍ
وَيَرْجِعُونَ "

وأخرج الترمذي عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " عُمْرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَرَابُ يَثْرِبَ ، وَخَرَابُ يَثْرِبَ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ ،
وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتْحُ قُسْطَنْطِينِيَّةَ ، وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خُرُوجُ الدَّجَّالِ ، ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى فَخِذِ الَّذِي حَدَّثَهُ أَوْ
مَنْكِبِهِ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذَا لَحَقٌّ كَمَاأَنَّكَ هَاهُنَا أَوْ كَمَا أَنَّكَ قَاعِدٌ ، يَعْنِي مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ .

قال العلامة أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ: (فتح القُسْطَنْطِينِيَّةَ المبشر به في الحديث سيكون في
المستقبل ؛ وهو الفتح الصحيح لها حين يعود المسلمون إلى دينهم الذي أعرضوا عنه ، وأما فتح الترك
الذي كان قبل عصرنا هذا فإنه تمهيد للفتح الأعظم ، ثم هي قد خرجت بعد ذلك من أيد المسلمين منذ أعلنت

حكومتهم أنها حكومة غير إسلامية وغير دينية وعاهدت الكفار أعداء الإسلام وحكمت أمتها بأحكام القوانين
الوثنية الكافرة ، وسيعود الفتح الإسلامي لها إن شاء الله كما بشر به رسول اللهـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ ـ)

ومع هذا فإن الفتح العثماني فتح عظيم تلاه فتح لقلوب شعوب كثيرة
ودخول كثير منهم في الإسلام، وفتح المهدي أمل سيتحقق ترنوا إليه أفئدة

المؤمنين ، وسيتحقق عاجلاً أو
آجلاً ، { ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً } .

المرجع : </
مقال للأستاذ عبد الرحمن بن حلي بمجلة المنار. <br